**المقال الثاني**

أعمال محمد علي في مصر

مقدمة

وهو ضابط صغير بالجيش، تأثر محمد علي بشخصية تاجر فرنسي يدعى "ليون". في ذلك الوقت، كان يُسمح لموظفي الدولة وضباط الجيش بالعمل بالتجارة بسبب أن مرتباتهم غير كافية وغير مستقرة. وبصداقته لهذا التاجر، تعلم محمد علي بعض أسرار التجارة، وكذلك حكايات كثيرة عن باريس؛ عاصمة الثقافة والحرية والمدنية....الخ. كما أن تنقله – بصفته ضابط بالجيش العثماني وتاجر في نفس الوقت- من عاصمة إلى عاصمة، اكسبه الكثير من المعارف و الخبرات.

أيضاً، في زمانه كانت الإمبراطورية العثمانية تترنح وتسقط، كما كانت الهزائم تتوالى عليها، وربما كان يحلم بتجديد أمجاد تلك الإمبراطورية. وعندما جاء إلى مصر، ورأى أرضها الخصبة ونيلها العظيم، وآثارها التي تحكي عن عراقة شعبها القديم، فكر في امكانية جلب الرخاء والاستقرار لأهلها- فكان أن خطط لتحقيق إستقلالاً لمصر عن الدولة العثمانية، وتكوين- ربما- إمبراطورية تحمل اسمه وتكون لأولاده وخلفاءه من بعده.

وكما رأينا سابقاً، بدأ بالتخلص من أعدائه، واحد تلو الأخر ثم الإنسلاخ من سلطة الباب العالي. بعدها، بدأ في وضع خطط لإصلاح حال البلاد والعباد- نذكر هنا بإيجاز شديد أهم المجالات التي تحمل بصماته- ربما- حتى يومنا هذا.

تكوين جيش وطني

في أول الأمر، واجه محمد علي صعوبات وإخفاقات كثيرة وهو يحاول بناء جيش حديث، إلى أن ظهر مسيو "سيف" الذي اعتنق الإسلام وصار يُعرف باسم (سليمان باشا الفرنساوي).

هذا- سليمان باشا- تم تكليفه من قبل محمد علي لتدريب العديد من الشباب المماليك وصغار الضباط الألبان والأتراك، ليصبحوا قادة الجيش الجديد المزمع تكوينه. وعليه، تم تأسيس مدرسة حربية بأسوان لتدريب الضباط، كما تم تعين سليمان باشا مديراً لها وقائداً للجيش الجديد.

أيضاً، تم اختيار الجنود- في البداية- من أسرى حروب السودان...الذين توفى أغلبهم بسبب عدم ملائمة الجو لهم. بعدها، بدأ محمد علي في تجنيد فلاحي مصر الفقراء، الذين كانوا في البداية يهربون من الجندية بتشويه أعضائهم سواء بقطع الأصابع أو فقع العين أو غيره. ولكن في النهاية – على سبيل المثال- رأينا حوالي 25000من الجنود المدربين على النظام الجديد، يستعرضون قوتهم في شوارع القاهرة سنة 1823م بقيادة سليمان باشا الفرنساوي.

أيضاً، اهتم محمد علي بإنشاء مدرسة حربية للمشاة، ومدرسة حربية لأركان الحرب، ومستشفى عسكري، ومدرسة للطب لخدمة الجيش. كما تم إنشاء مصنع للأسلحة والمدافع بالقلعة... وكذلك الإهتمام بتطوير وتحديث الأسطول المصري.

الاهتمام بالتعليم

بدأ محمد علي حكمه لمصر والبلاد تعوم في بحور الجهل، فوجه جهوده لتعليم رعيته. في البداية كان يقود التلاميذ إلى المدارس بالسلاسل والأغلال!! رغم تكفله بجميع النفقات؛ نفقات التعليم واللباس وكذلك رواتب شهرية- ولكن بعد فترة بدأت الأمور تستقر، وأقبل الكثيرون على التعليم. وقد أنشأ خمسين مدرسة ابتدائية، بها حوالي11000طالب. كما أنشأ مدارس متخصصة كالطب والهندسة، وكذلك مدرسة للأمراء خاصة بأبناءه وأبناء الأمراء- بلغ عدد تلاميذها 500 تلميذ.

ومن المدارس الخاصة التي أنشأها، مدرسة الهندسة بالقلعة سنة1816م- وذلك بهدف إعداد مهندسين، يقودون عمليات الإعمار التي كان يخطط لها.بعدها أنشأ مدرسة ثانية للهندسة ببولاق في سنة 1834م. أيضاً، في سنة 1827م أنشأ مدرسة الطب لتسد حاجة الجيوش في المقام الأول، ثم الشعب بعد ذلك، وجاء ببعض الأطباء الغربيين للتدريس بها.

ويرجع الفضل في إنشاءها إلى الدكتور "كلوت بك" الفرنسي، الذي قدم لمحمد علي تقريراً، جاء فيه:

" يجب أن يكون بمصر مدرسة للطب، يكون تلاميذها من المصريين المخلصيين، الذين يغارون على بلادهم ويحبون تقدم وطنهم. ويُتوصل إلى ذلك بإنشاء مستشفى عمومي يتعلم فيه 150 شاباً ممن لهم إلمام تام بمعرفة اللغة العربية قراءة وكتابة ومبادئ الحساب، ويجب أن تدرس لهم اللغة الفرنسية وأنواع الطب بفروعه ولاسيما الجراحة، وتكون مدة الدراسة بها أربع سنوات يُختبر التلميذ في آخر كل سنة منها".

كذلك أنشأ مدرسة للترجمة صارت بعد ذلك ( مدرسة الألسن) برئاسة رفاعة الطهطاوي. ورفاعة الطهطاوي، كان أحد الأئمة الذين تم إرسالهم برفقة الطلبة المبعوثين إلى فرنسا سنة 1826م. ولكنه، بدأ يتعرف على الحضارة الغربية، كما تعلم اللغة الفرنسية.... وتخصص في الترجمة (بعد موافقة الحكومة المصرية إلى ضمه للبعثة التعليمية كطالب).

وقبل أن يتقدم – رفاعة الطهطاوي- إلى الإمتحان النهائي، كان قد أنجز ترجمة اثني عشر عملاً من الفرنسية إلى العربية في تخصصات مختلفة، بالإضافة إلى كتابه المشهورعن باريس وأهلها.

وبعد رجوعه من باريس ، اقتنع محمد علي بضرورة إنشاء مدرسة للترجمة، لإعداد جيل من المترجمين يتولون ترجمة الأعمال الغربية إلى اللغة العربية. وبالفعل تم إفتتاح المدرسة سنة 1835م برياسته، وكان تُدرس فيها اللغات: الفرنسية والإنجليزية والايطالية والتركية والفارسية، إلى جانب علوم الهندسة والجبر والتاريخ والجغرافيا والشريعة الإسلامية.

واستمر محمد علي في إنشاء العديد من المدراس المتخصصة في جميع المجالات التي تحتاجها البلاد والحكومة المصرية. هذا، بالإضافة إلى إرساله العديد من الطلبة في بعثات علمية إلى أوربا، بداية من سنة 1809م. وهكذا صار في سنة 1842م عدد الطلبة المبعوثين إلى أوربا- وأكثرهم إلى فرنسا- يزيد عن120 طالباً. ومن هؤلاء الطلبة، كان الخديوي إسماعيل والأمير أحمد وشريف باشا وعلي مبارك باشا.

الإصلاحات الاقتصادية

ونعني بها الزراعة والصناعة والتجارة والأشغال العامة. ولكي يحقق محمد علي نهضة إقتصادية للبلاد، جعل جميع موارد البلاد تحت سيطرته المباشرة، أي أنه احتكر لنفسه كل شئ كالأرض الزراعية والصناعات والأنشطة التجارية.

* ففي مجال الزراعة:

استولى على جميع الأراضي الزراعية التي كانت للمماليك، وعلماء الأمة، وأعدم جميع حجج الأراضي التي في حوزة المماليك. قال إنه الحاكم النائب عن الخليفة المالك للأرض بحكم الفتح الإسلامي القديم. بعدها صار يعين أنواع المحاصيل الزراعية التي تزرع في كل بقعة من بقاع المملكة المصرية. كما أدخل محاصيل زراعية جديدة للبلاد، وجلب بذور جيدة للقطن من الهند وأمريكا. واهتم بزراعة الغابات المنتجة للأخشاب، حتى يستغنى عن استيرادها من الخارج.

أيضاً، اهتم بشق الترع وإنشاء الجسور والقناطر والسدود، وذلك لتسهيل الري والاستفادة القصوى من المياه.

* وفي مجال الصناعة

اهتم بجميع أشكال الصناعة وخاصة الحربية منها...ذلك لأنه لم يكن بالبلاد – قبل مجيئه- غير الصناعات الصغيرة اليدوية.

أنشأ مصانع للغزل والنسيج في كثير من المدن الكبرى بالبلاد. واستعان في تشغيلها بالخبرة الأجنبية. كما اهتم بإنشاء مصانع للسكر... والحرير وذلك بالاهتمام بدودة القز... ومصنع للطرابيش...الخ.

* وفي مجال الأشغال اليدوية

حفر ترعة المحمودية ( نسبة إلى السلطان محمود الثاني)، عن طريق تسخير الآلا ف من العمال. وقد أفاد حفرها في سرعة توصيل الحاصلات الزراعية من أماكن كثيرة إلى الأسكندرية، كما أنها عمرت البلاد والأراضي التي مرت بها.

بعدها، وسع ميناء الأسكندرية ليكون منفذاً على البحر، لإنعاش التجارة مع العالم الخارجي، وكذلك بيع جميع المحاصيل الزراعية، التي كانت جميعها في قبضة يده. وقد بنى فيه دار صناعة بحرية وأحواضاً لبناء السفن.

وإلى محمد علي، يرجع الفضل في وضع حجر أساس القناطر الخيرية، وذلك لحجز مياه النيل والإستفادة القصوى منها في جميع المواسم.

* وفي مجال التجارة:

زادت حركة التجارة سواء الداخلية أو الخارجة مع الدول الأجنبية، وذلك بسبب جميع النشاطات السابقة؛ الزراعية والصناعية والأشغال العامة. فمثلاً إنشاء ميناء في الأسكندرية، زاد حركة البضائع داخل البلاد، كما أنعش التجارة بين مصر والعالم الخارجي، فقصده جميع التجار من جميع أنحاء العالم. أيضاً، إنشاء أسطول بحري في البحر المتوسط والبحر الأحمر، ساهم في خدمة التجارة الخارجية.

وفاته

حكم محمد علي مصر من سنة 1805م إلى سنة 1849م- حيث توفى بالإسكندرية في شهر أغسطس 1849م، وهو يبلغ من العمر 79عاماً. وقد حكم كل المدة السابقة، بخلاف بضعة أشهر، تم فيها عزله بسبب كبر سنه وإنحطاط قواه العقلية.... وقد خلفه في أثناء هذه الشهور القليلة ابنه إبراهيم باشا، الذي توفى بعد عدة شهور من الحكم، فعاد محمد علي إلى الحكم حتى وفاته.

المراجع:

1. تاريخ مصر(5) تأليف المستر جورج يانج- مكتبة مدبولي.
2. تاريخ مصر (6) لعمر الاسكندري وسليم حسن- مكتبة مدبولي.
3. محمد علي باشا (عودة الذاكرة المصرية) لمنير غبور وأحمد عثمان- مكتبة مدبولي.
4. محمد علي لحسين كفافي - الهيئة المصرية العامة للكتاب.
5. الأقباط (النشأة والصراع) لملاك لوقا- مطبعة أنجيلوس.
6. وطنية الكنيسة القبطية للراهب القمص أنطونيوس الأنطوني- مكتبة المحبة.
7. تاريخ الكنيسة المصرية للكاتبة الإنجليزية لويزا بوتشر- مكتبة المحبة.
8. الموسوعة الميسرة في التاريخ الإسلامي(2) إعداد فريق البحوث والدراسات الإسلامية (فدا) – مؤسسة اقرأ.